عبقرية الشريف الرضى

تأليف الدكتور زكى مبارك

بقلم الأديب حسن حبشى

الدكتور مبارك من أكثر أدبائنا إنتاجا . لا يكاد يضع القلم من كتاب حتى يتهيأ لتأليف آخر . وهذه ناحية من النشاط محمودة . وإنه ليخيل لقارئ كتب الدكتور زكى أنه يضن بما يضطرم فى نفسه من خواطر ، وما يجول فى ذهنه من أفكار وآراء ألا يسجلها فى مؤلفات يطالعها الناس ، ومن هنا كانت كثرة ما كتب ، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى مؤلفه هذا (ج ٢ ص١٩٧) فى الفصل الذى عقده من حجازيات الشريف

وكتاب (عبقرية الشريف الرضي) والتصوف الاسلامى آخر مطبوعات الدكتور وليسا آخر مؤلفاته ، وأحسب أن لن يكون ثم كتاب أخير له حتى لا يكون فى الوجود زكى مبارك

والمترجم له من فطاحل شعراء العربية، وهو مغمور إن قيس بأنداده الذين ذهبوا بالذكر والشهرة ، أما الرضى فلم يظفر إلا ببضعة أسطر أو صفحات مبعثرة فى ثنايا الكتب الأدبية ، وببعض مقالات نشرت هنا وهناك ، وذلك على الرغم من الدور العظيم الذى مثله على مسرح السياسة والأدب فى عصره

تناول الدكتور زكى فى هذا السفر صاحبه الرضي من نواح عدة، إلا فى السياسة فقد مر عليها سريعا، كما ألم ببعض مواقف الشريف وحوادثه، غير أنه كان يعرض أحيانا للرواية دون بحث أو نقد، وقد يكون ظاهرا فيها الوضع . أو ما نرى ذلك فيما نقله عن صاحب التبيان (ج ١ ص ٢٧٨) من أن المرتضى نظم ذات يوم أبياتا فوقف به بحر الشعر ، فأشار على من يحملها إلى الرضى ليتمها فأتمها بقوله:

فردّت جوابا والدموع بوادرٌ ... وقد آن للشمل المشت ورودُ
فهيهات من ذكرى حبيب تعرّضت ... لنا دون لقياه [illegible]

قال أبو الحسن النحوى : « فأتيت بها المرتضى ، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى وقال : يعزّ علىّ أخى يقتله الفهم بعد أسبوع » فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعى الرضى . هذا ما نقله صاحب التبيان ، وجاء به صاحب العبقرية ، فانظر ماذا كان تعليقه ونقده عليها . قال : « ... وهذه نادرة يستبعدها الناس ، ولكنها طريفة ، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيها بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت » أما كاتب هذا المقال فلا يرى فيما نقله الدكتور عن صاحب التبيان إلا قصة ظاهراً فيها الوضع ، وأية دلالة على موت الشريف قد اشتمل عليها البيتان السابقان ؟ ثم أين نقد الدكتور لهذا الوضع الظاهر ؟ أشهد لقد غلب خيال الشاعر على موقف الناقد فى تعقيب المؤلف . فان فى تعليق الأستاذ مبارك بهذه العبارة السابقة روحا من الشعر ، وعبيقا من الفن الأدبي

ألمّ الدكتور زكى بنواح عدة من الشريف الشاعر ، وأحسب أن مقاله عن الجندى المجهول الذى استهل به كتابه ، إنما هو من المقالات التى تظهر فيها شخصية الرجل الذى يقدر كل التقدير منزلة الشريف، فهى رثاء العبقرية الموءودة فى كل زمان، ونفحة من نفحات الاجلال للنبوغ المقتول، وللذكاء المحكوم عليه بالاهمال فى الشرق.

أفرد المؤلف فصلا عن (أسرار العلائق بين الرضى والصابى) مع ما بين الاثنين من اختلاف فى العقيدة ، وقد صور المؤلف فى مستهله قوة الصلة التى كانت تجمع بين أبى إسحق الصابى وأبى أحمد الموسوي والد الشريف ، ويعرض لأثر الكتاب فى هذا العصر (ص ٤٩ ج ٢) ، وإلى الألفة والتوافق فى المذاهب الأدبية ، وهذا من الفصول القوية التحرير ، القوية العرض ، الدقيقة البحث فى هذا الكتاب ؛ وحجة الدكتور فى هذه الصداقة التى تجمع بين الاثنين أن الصابى كان يحبب للشريف أن يطلب الخلافة الاسلامية لنفسه ، وكان الشريف شابا والشبان «يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد فى يوم وليلة ، ويحبون من يزكيهم ويؤيدهم ويدعى لهم التفوق ، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخا جليلا يتنبأ له بمستقبل جليل فأحبه كل الحب » وفى هذا